ولا تجد لها بياناً ، فيصوغ لها بياناً من عنده ويلقى به إلى الشعب فإذا هو يسمعُ كل ما في ضميره مترجماً في ألفاظ حية تتردَّد في أذنيه . وفُتِن الشعب بسحر لسانه الذي ينطقُ بأسراره التي تتحيَّر في دمه ولا يعرفُ كيف يبينُ عنها ، وأسلم القياد لرجل يهديه ويرشدهُ ويعبّر عنه ، ويلطم بشيخوخته الوقورة الصاحية شبابَ بريطانيا الظافرة الطائشة السَّكرى براح النصر .

ثم كان شيء الله يعلم كيف كان ! !

فإذا هذا الشعب المأخوذ بسعد ، الثائر بالثورة في طلب حقه المتهجّم على بريطانيا العاتية ، المائجُ من منبع النيل إلى مصبه يطلبُ الحرية من قيوده وآصاره فتتلقّاه أسنّة الرماح البريطانية وبتخطّف أرواحه رصاصُ الوحوش ذاتُ المدنية العريقة منذ كان أرسطو إلى هذا اليوم !! إذا بهذا الشعب المنادي بالاستقلال التام يسمعُ دعوةً إلى مفاوضة بريطانيا لا يدري أحدٌ كيف جاءت وكيف تدسست إليه ، وإذا سعدٌ هو المفاوض ، فثبت مصر في آثار زعيمها ثقةً به وتسليما لهُ ، ورجتْ لحكيمها الشيخ أن يردّ إليها باستقلالها التام ...

كان هذا ولا يدري أحدٌ كيف كان !!

ولكن بقيتْ في مصر والسودان بقيّة لم تزلْ تسمع صدَى كلمات الفتى الأوّل ، فهبّت تصرُخ في وجه الشعب الطالب بالاستقلال التام ! ! حذَار حذار ، وألحت في صراخها ولكن مات صوتها في دويّ الأصوات الطالبة بالاستقلال التام ! وفي موّج الجماهير ، وفي أزيز الرصاص وهديره وقصفه . وأخيراً وقف رجلٌ يسخر من كلة مصر الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » سُخريةَ لاذعة ملفّقة في ثوب الدُّعابة المحبّبة إلى هذا الشعب منذ قديم الأزمان ، والذي يُدَاعبُ ويحب الدُّعابة ولا ينساها وهو في حبل الشنقة ، أو في سياق الموت . وكانت هذه الدُّعابة أفتَل من رصاص بريطانيا وحِرَابها ونذالتها جميعاً في قتل كلة مصر والسودان : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، حتى صار من يقولُ بها معدوداً عند أصحاب العصبيات الجاهلية في عداد المجانين والموسوسين والبُلْه واللاحيس .

ثم كان ذلك ولكن لا ندري كيف كان !!

ولكن بقي شيءٌ واحدٌ جهلته بريطانيا وجواسيسُها ، وجهله كل مِفراح طيّاش من أصحاب العصبيات الجاهلية التي غلبت على قلوبهم وأعمت أعينهم . ذلك الشيء الواحد هو أن المفاوضات ظلّت تجري منذ بدأت إلى أن كانت سنة ١٩٣٦ ، والشعب يتبَعُ المفاوضة بقلبه عسى أن يرجع إليه الرجال المفاوضون بحقّ مصر كاملا غير منقوص ، وهو من ورائهم يدفعهم دفعاً رجاء أن ينفعهم ذلك فينتفع بنفعهم . ولكن ... ولكن مرة أخرى وفي الثالثة كان الشعب يفعل ذلك مجتمعاً ، فلو سألتَ كل رجل وكل أنثى وكل طفل أيضاً : « هل ترجو من وراء هذه المفاوضات خيراً ؟ » فهو قائل لك : « يا سيدي ، ياما جرّبْنا » ثم يمضي لشأنه يائساً تكادُ دماؤه التي تجري في عروقه تبكي من الحسرات التي تقطّع قلبه وتنهش ضمير حياته !

هكذا كانت مصر والسودان برغم المفاوضات الدائرة ، وبرغم مطالبة الشعب مجتمعاً أحياناً بهذه المفاوضة . كانت الدِّماء تجري في الأبدان المصرية السودانية وتُهَيْمهم وتدمدمُ ، ولكن الرجُل الذي يفهم معنى هذه الهمهمة الخفيّة لم يكنْ موجوداً ، وهي لا تستطيع العبارة عن نَفْسها بلسان ناطق مبين : وبقينا جميعاً ننظُر ، لأن عبارة أمثالنا لن تؤدّي إلى شيء ، إذ لم يكن لأحد يومئذٍ من قوة الاستجابة لنداء الدم المصري السوداني ، ولا من استعداد الأبدان والعقول التي تجري فيها هذه الدماء ، ما يحمَل لكلمة مصر الخالدة « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » صدًى يتردّدُ فيستجيب له الوادي كُلّه كما استجاب للفتى الأوّل مصطفى كامل ، وبقيت الأبدانُ العاقِلَةُ ( والتي هي الشعب بأفراده ) في ناحية ، والدّم الذي يجري في هذه الأبدان نفسها في ناحية أخرى — وجعلَ الله بأسَنا بيننا ، فكانت إرادة الله ولا رادَّ لما أراد .

ثم كان شيءٌ ونحن ندري كيف كان .

فقد سكنتْ زمجرة المدافع ، وعجيج القنابل الذرية ، وقامَ رجالٌ يريدون مفاوضة بريطانيا ، ولكنهم لم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى سمعوا صوت الدّم المصري السوداني ينطقُ من كُلّ ناحية « لامفاوضة إلا بعد الجلاء » فتمّت المعجزة التي كان كل امرىء يترقّبها ، وكان لمصر والسودان النّصر بعد الهزيمة المنكرة الأولى ، وظهرت كلمةُ الحقّ حتى صار أكفَرُ الناس بها هو أشدَّهم إيماناً ، وأجودَهم في سبيلها بروحه وحياته ، وعادت مصر